السخرية في شعر ابن ميادة المرّيّ

أ. م. د. سالم محمد ذنون
قسم اللغة العربية/ كلية التربية
جامعة الموصل

بِسْمِ اللهِ الرَحْمَنِ الرَحِيمِ

ملخص البحث

يسعى هذا البحث الى الاشتغال على موضوع السخرية في شعر ابن ميادة المري، ذلك أن السخرية شكلت ظاهرة مميزة في شعره تستدعي الوقوف عليها بالدرس والتحليل، واستظهار جماليات تشكل السخرية المنبنية على المفارقة اللغوية، وعلى المفارقة في الصورة، مما خلق نوعاً من السخرية من مظاهر المجتمع السلبية، قصد تصحيح مسار أو تعديل حالة أو تقويم وضع، إذن فهي سخرية قائمة على مبدأ التنازع والتعاون في آن واحد؛ إذ إن السخرية بنّاءةً أكثر مما تسعى إلى الهدم، فهي تهدم السلبي وتقيم بدلاً عنه الايجابي في كل مناحي الحياة. وقد قام البحث على محورين اثنين: الأول: تناول السخرية الشخصية وهي أن يسخر الشاعر من شخص بعينه. والثاني: تناول السخرية القبلية وهي السخرية من قبيلة، أو جماعة، أو قومٍ.

توطئة:

شغل الهجاء مساحة واسعة في الشعر العربي بصفة عامة وفي الشعر العباسي بصفة خاصة لا تقل أهمية عن المساحة التي شغلها غرض المديح في الشعر العربي، ولا يخفى على قارئ الأدب العربي ما في الهجاء من تجريد المهجو من كل قيمة ذات معطى ايجابي، فضلا عن اضفاء كل قيمة ذات معطى سلبي عليه، ونحن في معرض اشتغالنا على شعر شاعر عرف بلسانه السليط هو ابن ميادة سنقف على موضوعة السخرية في شعره، والسخرية كما هو معروف تعدُّ أرفع درجات الهجاء وأقساها، لما تحويه من مضامين الاحتقار والاستهزاء والحط

من شأن المهجو وهذه المصطلحات متداخلة وتصبّ كلّها في الدائرة الأكبر دائرة الهجاء، ولعلّ الذي حدا بنا إلى الخوض في هذا الموضوع هو ما يميز شعر ابن ميادة الذي تشيع فيه روح السخرية بشكل ملفت للنظر حتى غدت السخرية ظاهرة تدعو الباحث أو قارئ شعر ابن ميادة إلى أن يقف على هذه الظاهرة المثيرة للجدل في عصر فتح الباب فيه على مصراعيه لكل لاهثٍ وراء متعة أو لهوٍ أو مسامرةٍ، وكذلك فتح العصر أبوابه لكل قيمة اجتماعية مستجلبة من الثقافات الأخرى بغض النظر عن كون هذه القيمة ايجابية أم سلبية. فضلاً عن الحياة المترفة المرفهة التي عاشها إنسان العصر العباسي، والحرية الواسعة التي تمتع بها ذلك الإنسان.

إن الوقوف على موضوعة السخرية في شعر ابن ميادة يستدعي منا أن نُقدّم مهادا موجزا عن مفهوم السخرية، حتى تنكشف آليات الاشتغال على شعر ابن ميادة وتتضح آفاق تلك الآليات الاشتغالية، وهذا الأمر يتطلب استحضار التجربة التفاعلية الحوارية بين النص والقارئ، قصد الوقوف على معطيات البنية النصية والوقوف على نتاج المثاقفة بين طرفي العملية الإنتاجية: القارئ والنص، والوصول إلى معطيات السخرية في شعر ابن ميادة.

السخرية معطيات المصطلح واتساع دائرة المفهوم:

إن قارئ الأدب العربي في مختلف عصوره لابُدَّ أنه سيعثر على نصوص زاخرة بدلالات السخرية سواء كانت هذه النصوص شعرية أم نثرية، ولعل في ذلك دلالة واضحة على ملازمة السخرية حياة الإنسان بوصفها سلوكا كان ينحاه عدد من الناس الذين يجدون في أنفسهم المقدرة على تصوير المواقف، أو الحوادث، أو المظاهر المضحكة سواء أكانت خَلْقِيّة أم خُلُقِيَة، ((والسخرية قديمة قدم الإنسان، لأنها قد تكون ترويحا عن النفس أو تسرية عن القلب، أو استنكاراً لما يقع، أو هزءاً وتندراً بالخصم، كما جاء في قصة نوح (عليه السلام)، حين أُمِر بصنع السفينة ليجمع فيها من كل زوجين اثنين، وأهله، وقرابته المؤمنين، ومن اتبعه وآمن به... هزأ به قومه، وضحكوا منه وقالوا: يا نوح، فد كنت بالأمس نبياً، وأصبحت اليوم نجاراً!! فكان جواب نوح حاملاً الوعيد والتهديد عاقبة لتكذيبهم واستهزائهم))[1]، وقد وردت هذه الحادثة عن سيدنا نوح في القرآن الكريم في قوله تعالى: چ ٱ ب ب ب ب پ پ پ پ ڀ ڀ

ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ[٢]، فالسخرية كما هو واضح من قصة سيدنا نوح (عليه السلام) تشير إلى معطى آخر يستشف من القرائن والدلالات المتعلقة بالسخرية في دائرة السياق النصي، وهذا المعطى هو التندر، والنادرة هي الطريقة المبتكرة التي تثير الضحك الموسوم بالسخرية اللاذعة. إذن، فالسخرية هي ((النقد الضاحك أو التجريح الهازيء، وغرض الساخر هو النقد أولا والإضحاك ثانيا، وهو تصوير الإنسان تصويرا مضحكا إما بوضعه في صورة مضحكة بواسطة التشويه الذي لا يصل إلى حدّ الإيلام، أو تكبير العيوب الجسمية أو العضوية أو الحركية أو العقلية أو ما فيه من عيوب حتى سلوكه مع المجتمع وكلُّ ذلك بطريقة خاصة مباشرة))[٣]، فدائرة مدلول السخرية يتسع ولا يقف عند مدلول واحد فقط، بل تتعدد المدلولات على وفق رؤية الإنسان الساخر إلى ما يراد السخرية منه، وهذه الرؤية تحكمها ظروف ومعطيات محددة بالحال التي يقف بإزائها الساخر، وهذه الرؤية ترتبط كذلك بطريقة إيصالها بالطريقة التي يسعى من ورائها الانتشار السريع للسخرية، لذلك فالسخرية في مفهوم آخر لها هي ((طريقة من طرق التعبير، يستعمل فيها الشخص ألفاظا تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم، وهي صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المعوج أو الأخطاء التي إن فَطِنَ إليها وعرفها فنَّانٌ موهوبٌ تمام المعرفة، وأحسن عرضها، تكون حينئذ في يده سلاحا مميتا))[٤]، سلاحا ذا حدين، قد يفتك بالمتعرض للسخرية، وقد يفتك بالساخر نفسه، لأن السخرية قد تؤدي إلى هلاك الساخر إذا ما انبرى المسخور منه إلى الانتقام من الساخر.. ولعل شاعرنا العربي الذي قتله شعره– أعني المتنبي– خير مثال على ذلك، فهو الذي وقع ضحية لسانه السليط عندما هجا ضَبَّة الكلابي القرمطي [٥]، ومن خلال ذلك يتبين ان ((الهجاء الساخر مصطلح عام يتضمن عادة حكما أخلاقيا وينطوي على الرغبة في مدِّ يد العون لتصويب عُرْفٍ أو معتقد أو تقليد، ويندرج تحت التعبير هجاء هوراس الدقيق الذي يقف عند التأنيب ويعمد إلى التصويب أما الهجاء الساخر المنتمي إلى جوفنال فوحشي مرّ. والهجاء الساخر الحديث لطيف معتدل (مارك توين)، أو فكه بارع (شو) أو داعٍ للمدح (جيمس ثربر)))[٦].

ان هذا التنوع في مدلولات السخرية دليل مهم وواضح على أهمية الدال (السخرية) من حيث التشعب والامتداد إلى مناح مختلفة في حياة الناس، وما هذا التنوع إلا دليل كذلك على اختلاف الرؤى التي من خلالها تحدد طبيعة السخرية ولاسيما رؤية الأديب الذي يمتلك

قدرة كبيرة على تقدير المواقف والمظاهر المتنوعة في الحياة، وإن للسخرية خصوصيتها في الأدب لما لها من تأثير كبير في الهدم والبناء في الوقت نفسه هذا إذا كانت موجهة توجيها سويا نابعا من روح ناقدة لمعطيات سائدة في مجتمع ما قصد بناء قيم جديدة، ((فشعر الهجاء – إذاً – يدور في محورَي التعاون والتنازع، على النحو الذي يوضح ازدواج الوظيفة التي يصدر عنها، في تدعيم القيم والخلال الايجابية التي يراها في قبيلته أو مجتمعه، وتغيير الاتجاهات السلبية التي يصورها من خلال خصومه في عملية التنازع، التي تحتفظ بجوهرها القديم رغم تنوّع أشكالها في العصر الحديث، على نحو ما يتضح في حرب الدعاية وكسب الأنصار للمبادئ والمعتقدات))[٧]، وبما أن السخرية هي صورة من صور الهجاء فالأمر ذاته ينسحب عليها من حيث انبناؤها على محوري التعاون والتنازع.. والسخرية كذلك هي ((العنصر الذي يحتوي على توليفه درامية من النقد و الهجاء، التلميح، اللماحية، التهكم والدعابة.. وذلك بهدف التعريض بشخص ما أو مبدأ ما أو فكرة أي أو أي شيء وتعريته بإلقاء الأضواء على الثغرات والسلبيات وأوجه القصور فيها))[٨]، فمما يتضح من هذا الكلام ان السخرية هي الوقوف على الجوانب السقيمة والسلبية التي تطفو على وجه المجتمع، قصد تعريفها إلى الناس في محاولة ناقدة وجادة تهدف تجنبها، فضلا عن وظيفة السخرية في وضع الحلول والبدائل الناجعة التي تقود إلى إصلاح المجتمع ووضع أبنائه على المسار الصحيح في الحياة، لذلك ((إذا كانت روح الفكاهة قد تنحرف حتى تصبح بغيضة منفِّرة، لا عمل لها غير التهجُّم والتطاول والزراية والاحتقار، كما نجد في نماذج عديدة للهجاء الشخصي، وشعر المجون في العصر العباسي خاصة – فإن ذلك لا يقدح في الوظيفة الايجابية التي تطبع بها هذه الروح الفكاهية نماذج أخرى من الشعر الساخر، الذي استطاع بسحر البلاغة وعلوِّ البيان ان يتهكم بما هو جدير بالتهكم، ويُضحكنا من أشياء كثيرة على النحو الذي يُكسب هذا الفن الشعري سماتٍ فنيةً، يتسم بها في عرض الأمور في قالب ساخر))[٩]، فعلى الرغم من الطريقة القاسية التي تقدم فيها السخرية صورة المسخور منه، فإنه لا يفهم من ذلك أن الغاية من ورائها الوقوف على المعطيات السلبية دون الوقوف على وضع المقاصد الايجابية البنّاءة التي يستشفها القارئ من

خلال الوقوف على معطيات النص وما يعن للقارئ من وراء هذه المعطيات النصية من تداعيات الخطاب الموجه الذي يكشف عن المقصدية الكامنة فيه.

وسنقف في الصفحات القادمة مع النصوص الشعرية للشاعر ابن ميادة المري، لنكشف عن جماليات السخرية في شعره من خلال التحليل متكئين على المعطيات النصية وما تشير إليه من دلالات تكشف عن السخرية في شعره، في ضوء محورين أساسيين، يأخذ الأول منحى الوقوف على السخرية الشخصية الموجهة إلى شخص معين، في حين يأخذ الثاني منحى الوقوف عند دلالات السخرية القبلية المتمثلة بالسخرية من قومٍ أو قبيلة أو جماعة من الناس.. وبمجموع هذين المحورين تكتمل صورة السخرية في شعر ابن ميادة.

(١) السخرية الشخصية:

تعد السخرية الشخصية أكثر أنواع السخرية التي خاض فيها الشعراء منذ عصر ما قبل الإسلام، ذلك أن هذا النوع من السخرية يعتمد أساسا على المسائل الشخصية بين الناس فيما يتعلق بالحقد والكراهية والتحكم بالآخرين. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن ننوه مرارا وتكرارا إلى أن السخرية هي أرفع درجات الهجاء حتى نضع أمام القارىء فكرة التواشج الكبير بينهما _ أي السخرية والهجاء _، إذن فهما قد يكونان وجهان لعملة واحدة مع احتفاظ السخرية بقيمتها وماهيتها وخصوصيتها عن الهجاء. وبما أن موضوعنا هو السخرية الشخصية، لذلك وجب التنويه ((إلى أن الهجاء الشخصي الذي يعتمد على شذوذ الخِلقة هجاء سلبي، يُلحَق بسابقه؛ ولذلك يُظهرنا تطور الذوق العام على ضعف الرغبة في السخرية من ذوي الشذوذ الجثماني كالأقزام والعميان والمقعدين وحُدب الظهور ومشوهي الخِلقة، أو السخرية من مصائب الغير، فاختفاء هذه العوامل المثيرة للضحك أصلا دليل على أن الاعتبارات الإنسانية قد أصبح لها مكان في صدر الإنسان المتحضّر))[١٠]. وقد شاعت السخرية في العصر العباسي بدرجة كبيرة وكان أكثرها في باب السخرية الشخصية، وذلك لأنَّ القبلية العصبية التي كانت سائدة في العصور السابقة، لم يعد لها أثر كبير في العصر العباسي، بحكم التطور الاجتماعي والفكري الذي يدخل في دائرة التطور الأكبر ألا وهو التطور الحضاري، وهذا لا يعني أننا ننفي الاتجاه القبلي عن العصر العباسي ولكن السخرية (الشخصية) كانت

محور التقاذف بين الناس ولاسيما الشعراء، ولعل ابن ميَّادة الشاعر المخضرم في العصرين الأموي والعباسي يعد أحد الشعراء البارزين في خوضه موضوع السخرية، فجاءت سخريته لاذعة قاسية على الذين تصدى لهم بلسانه السليط، وجاءت سخريته على نمطين: الأول السخرية الشخصية الذي سنعرض له في هذا المبحث، والثاني: السخرية القبلية الذي سنتناوله في المبحث الثاني إن شاء الله.

وسنقف في هذا المحور على معطيات السخرية الشخصية في شعر ابن ميّادة من خلال تحليل النصوص المعبرة عن هذه الظاهرة، فمن سخرية ابن ميادة قوله في هجاء علفة بن عقيل[١١]:

يـــا بـــنَ عقيـــلٍ لا تكـــنْ كـــذوبا أَأَنْ شـــربتَ الحـــرز والحليبـــا

مِـــنْ شـــولِ زيـــدٍ وشـــممتَ طيبـــا جهـــلاً تجنيـــتَ لـــي الـــذنوبا

يَسْخَرُ الشاعر من هذا الشخص فيكشف عن خصلة سيئة فيه ألا وهي صفة (الكذب)، فالشاعر يتهجم على ابن عقيل محاولاً فضحه بين الناس عندما وجه إليه الخطاب على هيئة النصح المتشكل بواسطة أسلوب النهي في قوله: (لا تكن كذوبا) فهذا النهي يمثل بؤرة السخرية، من خلال هذا الأسلوب الذي عمل على تعميق الدلالة من (لا) الناهية، و(صيغة المبالغة) (كذوب)، إذ لم يقل الشاعر:(كاذباً)، بل قال: (كذوباً) ليثبت صفة في هذا الانسان وهي أنه كثير الكذب (صيغة فعول)، بل إنَّ الكذب يشكل صفة من الصفات الشخصية لـ(ابن عقيل) المسخور منه، وقد كشف الشاعر عن هذه الصفة المشينة في هذا الانسان عن طريق إدعائه بأنه قد شرب الحرز والحليب من ناقة زيد التي خف لبنها وارتفع ضرعها (شول) وأتى عليها سبعة أشهر أو ثمانية من يوم ولادتها.. ومما يعزز استخفاف الشاعر بهذه الشخصية المتصفة بالكذب استخدامه أداة النداء (يا) فالمعلوم أنَّ هذه الأداة تستخدم للبعيد، فالشاعر نادى بها (ابن عقيل) ليبيِّن للقارئ وضاعة هذه الشخصية فهو بهذا الأسلوب في النداء بالبعيد يُحَقِّرُ من شأن ابن عقيل وهذا من متعلقات السياق النصي الدال على هذه الحالة الخاصة بالمسخور منه في هذا النص، و مما مكن الشاعر من الاستخفاف به استخدامه ألف الإطلاق

التي اتصلت بحرف الروي (الباء)، فصوت الباء انفجاري وهذا يؤكد انفجار الشاعر وقريحته في السخرية من (ابن عقيل)، وألف الإطلاق جاءت لتعزز خفة عقل (ابن عقيل) بسبب اتخاذه الكذب وسيلة في حياته.

ومن السخرية الشخصية قوله يهجو الحكم الخضري[١٢]:

لقد طال حبسُ الوفدِ وفدِ محاربٍ عن المجدِ لم يأذنْ لهم بعد حاجبُهْ
وقال لهم كرُّوا فلستُ بآذنٍ لكم أبداً أو يُحصي التُرْبَ حاسبُهْ

نلحظ في هذا النص أنَّ الشاعر يشخص (المجد) وهو يَسْخَرُ من الحكم الخضري الذي ينتسب الى بني محارب، فنلتمس روح الاستخفاف والتحقير من الشاعر وهو يوجهه الى هذا الشخص، الذي حُبس عنه المجد، وطال به وبقومه هذا الاحتباس، فالمجد لا يعرف إليهم طريقاً، بل إنهم هم الذين لا يعرفون الى المجد طريقاً، وتتعزز صورة السخرية في تشخيص الشاعر (المجد) إذ جعله مثل حاكم له حاجب، والحاجب لم يأذن للحكم وقومه أن يدخلوا على المجد، وتتعزز هذه الصورة في البيت الثاني عندما يشخص المجد بإحدى خصائص الانسان وهي (النطق) عندما يلفظ: (وقال لهم كرُّوا...) أي إنَّ المجد قال لهم كرُّوا فلستُ بآذنٍ. أي لا آذن لكم بالدخول عليَّ.. وينتقل الشاعر في تصويره لهذا الشخص وقومه الى مبدأ التعجيز على لسان (المجد) عندما يقول: (أو يحصي الترب حاسبه) فهذه الصورة تعجيزية إذ لا يمكن لأحدٍ أن يحصي التراب، فقد أشاح الشاعر بهذه الصورة الساخرة عن المكانة الوضيعة للحكم الخضري وقومه، وقد تركزت السخرية في هذا النص على الصورة الكاريكاتورية المتشكلة من خلال التشخيص، واللغة السهلة الشفافة.

وقال ابن ميادة يسخر من خاله: [١٣]

إنْ تكُ خالَنا فَقُبِّحتَ خالا فأنتَ الخالُ تنقصُ لا تزيدُ
فيوماً في مزينةَ أنتَ حُرٌّ ويوماً أنتَ محتدكَ العبيدُ
أحقُّ الناسِ أنْ يلقى هواناً ويؤكلُ مالُهُ العَبْدُ الطريدُ

تأخذ السخرية في هذا النص شكل حوارٍ ضمني بين الشاعر وبين خاله، إذ يسخر من خاله من خلال التشكيل اللغوي والتشكيل الصوري، فالأول يحدث في بؤرة السخرية في قوله: (فقُبِّجْتَ خالا)، فهو يستقبح خاله، وهذا النوع من السخرية ليس جديداً في الشعر العباسي، إذ إن السخرية من الأقارب وهجاءهم شاع في الأدب العربي منذ القديم، فليس غريباً أنْ نجد ابن ميادة يسخر من خاله. ونجد اللغة في هذا النص تعدُّ المُشكّل الرئيس لمعطيات السخرية، فنرى تقديم شبه الجملة الظرفية على جملة الابتداء في قوله: (فيوماً... أنت حرٌّ)، وقوله: (ويوماً أنت محتدك العبيدُ)، ونلاحظ الحقل الدلالي الطاغي على بنية هذا النص هي ألفاظ الاحتقارِ في قوله: (قبحت، تنقصُ، محتدك العبيدُ، هواناً، العبدُ الطريدُ) وهذا التكاثف في هذه الألفاظ إنما هو تعزيز وتأكيد على شدة احتقار الشاعر خاله والاستخفاف به، ونلاحظ في هذا النص أنَّ التكرار قد أخذ دوره الفاعل في تعزيز السخرية، فنلاحظ لفظة (خال) تكررت ثلاث مراتٍ في البيت الأول، (خالنا، خالا، الخال)، وتكرار لفظة (يوماً) مرتين، وتكرار الضمير (أنت) مرتين في البيت الثاني، فضلاً عن لفظة (العبيد)، ولفظة (العبد) وما أحدثتاه من تناغم صوتي يعزز الصورة المضحكة، والجناس في البيت الأول بين لفظتي (خالنا) و(الخال) ولد طاقة موسيقية تعزز موقف الشاعر في الاستخفاف بخاله وتحقير شأنه، فاللفظة الأولى (خالنا) جاءت بمعنى شقيق الأم، أما اللفظة الثانية (الخال) جاءت بمعنى السحاب الذي لا مطر فيه. ومن خلال هذا التكاثف في اللغة المتعالقة بالحقل الدلالي المتولد من دلالة الاحتقار، فضلاً عن التكرار الحاصل في عدد من ألفاظ النص، وكذلك الجناس، كل ذلك تضافر من أجل رسم صورة ساخرة عن هذا الخال موضوع السخرية.

وقال الشاعر يسخر من علفة بن عقيل[١٤]:

أَعَلْفَ إنَّ الصقرَ ليس بمدلجٍ(*) ولكنه بالليلِ متخذ وكرا

ومفترش بين الجناحينِ سلحة(**) إذا الليلُ ألقى فوقَ خرطومه كسرا(***)

فإنْ يك صقراً بعد ليلةِ أمِّهِ وليلة جحافٍ فأفٍ له صقرا

تتبلور السخرية في هذا النص من خلال اتخاذ الشاعر التعيير بالمسخور منه وسيلة يوجه من خلالها سهام لسانه السليط الى (علفة)، والشاعر يتخذ من الصورة القائمة على المقارنة بين الطائر المعروف بالقوة وحدة النظر (الصقر) وبين (علفة) وسيلة لرسم صورة ساخرة كاريكاتورية، وجاءت هذه المقارنة استناداً إلى حادثة وقعت بين عقيل والد علفة وبين أمِّ علفة عندما ضربها عقيل، فأرسلت الى رجلٍ من بني أنمار يقال له جحاف فأتاها ليلاً فاحتملها على جمل فذهب بها[١٥]. فالشاعر يعير المهجو علفة بأمه التي رحلت برفقة (جحاف)، الذي جاء وأخذها من عقر دارها وعقيل أبوه موجود، لهذا قال فيه الشاعر: (فأفٍ له صقرا). ونلاحظ في أسلوب الاستهزاء والسخرية الطاغي على هذا النص أنَّ الشاعر ينادي المسخور منه بأسلوب الترخيم (أعلفَ)، وقد جاء الترخيم هنا للاحتقار وتصغير الشأن. وهكذا نجد في شعر ابن ميادة أنَّ السخرية الشخصية جاءت مركزة على ثيمات الاحتقار والسخرية والاستهزاء بناءً على قيم سلبية يحملها الأشخاص الذين قصدهم ابن ميادة في شعره.

(٢) السخرية القبلية:

إن السخرية في العصر العباسي على الرغم من أنها ظلت مصطبغة بصبغة السخرية الشخصية، فان ذلك لم يمنع العديد من الشعراء في هذا العصر أن يخوضوا في السخرية القبلية، وهو الذي نعني به أن يتوجه الشاعر بسخريته إلى قبيلة ما فيعريها من كل الخصال الحميدة والقيم الأصيلة، ويعمل على إضفاء المثالب والمعايب عليها. والسخرية القبلية في العصر العباسي تتميز بالمسحة القبلية، وهو أسلوب ساد في الشعر العربي في عصوره القديمة ولاسيما العصر الجاهلي، والعصر الأموي. وهذا أمرٌ طبيعي في موضوع يعمد الشاعر فيه إلى سلب قبيلة ما أو قوم ما كل قيم العروبة من شجاعة وشهامة وحماية الجار، وإكرام الضيف والمروءة وغيرها كثير من الصفات والخصال الحميدة التي اتسمت بها الأمة العربية، وعززتها مبادئ الشريعة الإسلامية. ونلاحظ في شعر ابن ميادة نماذج يسخر فيها من قبلية معينة أو قوم معينين، فمن ذلك قوله[١٦]:

بنـــي أَسَـــدٍ إنْ تغضـــبوا ثـــمّ تغضـــبوا وتعـــدلْ قـــريش تحـــمِ قيســـاً غضـــابها

وأحقـــــرُ محقـــــور تمـــــيمٍ أخـــــوكُمُ وإنْ غضـــــبتْ يربوعهـــــا ورِبابُهـــــا

سخرية الشاعر في هذا النص موجهة الى قبيلتين هما قبيلة (بنو أسد) وقبيلة (تميم)، إذ نلتمس في هذه السخرية روح الاستخفاف والتحقير بهاتين القبيلتين، فالشاعر يجرد من هاتين القبيلتين الشجاعة والمروءة في البيت الأول، ونلاحظ أنه جاء بأسلوب النداء محذوف الأداة في قوله: (بني أسدٍ) إشارة منه الى وضاعة هذه القبيلة، وفي محاولة منا في قراءة ما وراء الأسلوب الشعري في هذا النص نجد أنّ الشاعر سعى الى الحطِّ من شأن هذه القبيلة فهو لم يأتِ بهذه العبارة على صيغة الرفع فلم يقل: (بنو أسد) حتى لا يرتفع بشأنها، ولو حتى على مستوى الأسلوب، وفي تكراره لفظة (تغضبوا) مرتين دلالة على أنَّ غضب هذه القبيلة لا يجدي شيئاً، كونه غضب لا يرقى الى مستوى الفعل، بل هو غضب كلام فقط، ثم يلجأ الشاعر الى صيغة (أفعل) في قوله: (وأحقرُ محقور تميمٍ أخوكم)، ليعطي تكثيفاً دلالياً على مستوى اللفظة معطياً بذلك شحنات قوية تبني عن شدة كراهته وحقده لقبيلة تميم. وهكذا نجد في هذا النص السخرية الجلية الواضحة تجاه هاتين القبيلتين، وقد جاءت هذه السخرية بلغة قوية جزلة، وقد استند الشاعر في هجائه هذا الى الرجوع بهاتين القبيلتين الى جذورهما (يربوع ورباب).

وقال الشاعر يسخر من بني محارب: [١٧]

إذا حـــلَّ جـــارٌ جانبـــاً فـــي محـــاربٍ وجســـر فـــلا يبشـــر بعـــزٍ ولا نصـــرِ

فـــــدفعهما عنـــــه إذا مـــــا تحـــــديا وجـــدا كـــدفعِ الاســـكتين عـــن البظـــرِ

جاء الخطاب في هذا النص تجاه قبيلة بني محارب، وهي من أحياء العرب هو حي (جسر)، مليئاً بالسخرية المرسومة عن طريق الصورة الرائعة التي تضافرت اللغة في تشكلها الى جانب التشبيه، فاللغة في هذا النص جاءت مشحونة بدلالة السخرية ولاسيما في استخدامه (إذا) الشرطية وهي من الأدوات غير الجازمة، وقد جاء أسلوب الشاعر دقيقاً في تأطير المعنى الذي يريد، ألا وهو إبعاد بشارة العز والنصر عمن يجاور هاتين القبيلتين (بني محارب) و(جسر)، فلا يوجد جزم وتأكيد على الحصول على العزة والنصرة فيما يحاورهما، حتى ولو

حصل أنَّ هاتين القبيلتين قد تحديتا من أجل نصرة الجار، فإنهما لا يدفعان عن هذا الجار مظلمة حتى وإن جدّا واجتهدا في ذلك، وقد رسم لنا الشاعر صورة غاية في الروعة حين شبه ضعف ووهن هاتين القبيلتين بإسكتي الانسان، وهما جانبا مجلس الرجل من المرأة، فنجد في هذه الصورة سخرية لاذعة نقلها لنا الشاعر على صورة كاريكاتورية مضحكة.

ومن سخرية الشاعر قوله في بني حميس[١٨]:

قصارُ الخُطَى فرق الخُطَى زمر اللِّحَى ... كأنّهم ظربى اهترشن علي لحمِ
ذكرتُ حمّامَ القَيْضِ لما رأيتهم ... يَمشّون حولي في ثيابهم الدسمِ
وتبدي الحميسيات في كلِّ زينةٍ ... فروجاً كآثارِ الصغارِ من البهمِ

تتكاثف السخرية في هذا النص من خلال الصورة المبدعة التي يصور بها الشاعر هذه القبيلة، فأبناء هذه القبيلة يعرفون بأنهم (قصار الخطى)، وفي ذلك كناية عن تباطئهم في الذود عن أنفسهم، وقد يريد من ذلك الشاعر أنهم قصار القامة، فالمعروف في قصير القامة، أن تكون خطوته قصيرة أيضاً، ولكن الدلالة الأولى هي الأكثر ملاءمة مع هذه الصورة الساخرة القائمة على تجريد هذه القبيلة من القيم الإيجابية. ويستمر الشاعر في وصف أبناء هذه القبيلة فهم (زمر اللحى) أي لهم لحى كثيفة الشعر إشارة منه الى قبح منظرهم، فهم يتصفون بالبشاعة والقبح، ثم يأخذ التشبيه مبلغه في رسم الصورة الساخرة لهذه القبيلة حين يشبههم بدويبة معروفة بالرائحة النتنة، فهو يجمع بين قذارتهم وقذارة هذه الدويبة فهو يصور قذارة أبناء هذه القبيلة بمجموعة من الظربان يتقاتلن على قطعة من اللحم ويستمر الشاعر في رسم هذه الصورة الساخرة، فيقول: إنَّه لما رآهم يمشون حوله بثيابهم الوسخة، تذكر حمّام القيض، لأنَّ الانسان في فصل القيض الحار تظهر منه رائحة كريهة فهو بحاجة الى حمّام يغسل فيه درن هذه القبيلة القذرة، ثم ما يلبث الشاعر حتى ينتقل بنا الى رسم صورة نساء هذه القبيلة، وذلك عندما يشبههن بصغار البهائم التي تنكشف عورتها، فكذلك نساء بني حميس عندما يتزينن تبدو مفاتنهن وهي عورة.. فهذه السخرية المستمدة من القيم القبلية التي كانت سائدة في العصور السابقة للعصر العباسي، سخرية قائمة على التهكم والاستخفاف وتجريد القبلية المعنية بالسخرية من كل القيم الأصلية. وقال يسخر من آل محارب[١٩]:

يقولـــون أبنـــاء البعيـــر ومـــا لَـــهُ سـنام ولا فـي ذروة المجـد غـاربُ
أرادت وذاكـــم مـــن ســـفاهة رأيهـــا أنْ اهجوَهَـــا لمَّـــا هجتنـــي محـــاربُ
معـــاذَ إلهـــي إننـــي بعشـــيرتي ونفســـي عـــن ذاك المقـــام لراغـــبُ

نلاحظ في هذا النص صورة ساخرة يستخف فيها الشاعر من آل محارب، وهي سخرية قبلية يعمد فيها الشاعر الى تجريد آل محارب من المجد، في قوله: (يقولون أبناء البعير..) على أساس أنَّ هؤلاء القوم يرجعون في نسبهم الى بلال بن البعير المحاربي، إلا أنَّ بعيرهم هذا لا سنام له كناية عن العلو والرفعة، فهو يحط من شأنهم في هذه الصورة الساخرة المضحكة، فكأننا أمام رسام كاريكاتوري يتعمد الشاعر فيه رسم بعير بلا سنام قصد الاستخفاف والاستهانة بهم. ثم إنَّ هؤلاء القوم (آل محارب) هم الذين طلبوا من الشاعر أن يسخر منهم، وما كان ذلك إلا لسفاهة رأيهم وفساده، فإنهم قوم لا يتصفون بالحكمة والروية والحلم، لهذا يترفع الشاعر بنفسه وبعشيرته أنْ يخوض في مثل ذلك، لأنه بسخريته منهم سيرفع من شأنهم، وهو يرفض ذلك بقوة وهذا واضح في استخدامه (لام) التوكيد في قوله: (لراغب)، أي إنه تارك أمر السخرية من آل محارب حتى لا يرفع من شأنهم بها... إذن، من خلال ذلك نرى أنَّ السخرية القبلية في شعر ابن ميادة جاءت معتمدة على تجريد الجماعة المسخور منها أو القبيلة من كل القيم الأصيلة التي عرف بها العرب من شجاعة وكرم وعفة وشهامة وحماية الجار وإكرام الضيف وغيرها من القيم الأصيلة ذات المحمول الإيجابي، فالشاعر إنما كانت سخريته قائمة على مبدأ الهدم والبناء، فهو يعمد إلى هدم المعطيات السلبية في المجتمع ليقيم مكانها معطيات إيجابية تعمل على بناء مجتمع سوي في مختلف مناحي الحياة.

هوامش البحث:

(١) السخرية في أدب الجاحظ: السيد عبد الحليم محمد محسن ٦٤.

(٢) هود: ٣٨.

(٣) السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري: نعمان محمد أمين طه ١٤.

(٤) معجم المصطلحات في اللغة والأدب: مجدي وهبة وكامل المهندس ١٩٨.

(٥) ينظر: ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام: د. عبد الوهاب عزام ٢٥٩.

(٦) معجم المصطلحات الأدبية: إعداد: إبراهيم فتحي ٣٩٨.

(٧) الأدب الفكاهي: الدكتور عبد العزيز شرف ٧١.

(٨) الأدب الساخر: نبيل راغب ١٣.

(٩) الأدب الفكاهي: الدكتور عبد العزيز شرف ٨٤.

(١٠) م. ن ٧٤.

(١١) شعر ابن ميادة ١٦.

(١٢) م. ن ٢٢.

(١٣) م. ن ٣٩.

(١٤) م. ن ٥٠.

(*) مدلج: من أدلج القوم إذا ساروا أول الليل.

(**) السلحة: فرج الحجل.

(***) كسرا: أصله الشفة السفلى من الخباء، والمراد بها هنا أنَّ الليل ستره وغطاه.

(١٥) الأغاني: أبو الفرج الاصبهاني ٢ / ٢٨٩.

(١٦) شعر ابن ميادة: ٢٠

(١٧) م. ن ٦٤. وينظر: م.ن ١٠١.

(١٨) م. ن ٩٩.

(١٩) م. ن ١٠٩.

مصادر البحث

١. الأدب الساخر: نبيل راغب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

٢. الأدب الفكاهي: الدكتور عبد العزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان الدقي، الجيزة، مصر، ط١، ١٩٩٢م.

٣. ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام: د. عبد الوهاب عزام، مطبعة الجزيرة، بغداد، ١٩٣٦م.

٤. السخرية في أدب الجاحظ: السيد عبد الحليم محمد حسن، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الجماهيرية العربية الليبية، ط١، ١٩٨٨م.

٥. السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري: نعمان محمد امين طه، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، القاهرة، ط١، ١٩٧٨م.

٦. شعر ابن ميادة الرماح بن ابرد المرّيّ: جمع وتحقيق: محمد نايف الدليمي، مطبعة الجمهور، شارع النجفي، الموصل، ١٩٧٠م.

٧. معجم المصطلحات الأدبية: إعداد: إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، طبع التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، الجمهورية التونسية، ط١، ١٩٨٦م.

٨. معجم المصطلحات في اللغة والأدب: مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

Abstract

The study attempts to deal with sarcasim in the poeting of Ibn Mayadah Al- Murri for sarcasm has formed a distinguished phenomenon that deserves to be studied and analyzed as well as to point out it's a esthetics established on the linguistic irony and the image irony lead to astate of sarcasim on the negative aspects of the society in a way to correct a trajectory or moderat a state so, it is a sarcasim established on the principle of conflicting and cooperation at a same time. The study is based on two axes: the first deals with the personal sarcasim , and the second deals with the tribal sarcasim.